٣ـ المَنْهَجُ التَّارِيخِيُّ... وَالدِّرَاسَاتُ العَرَبِيَّةُ المُعَاصِرَة

ـ عَبَّاس مَحْمُود العَقَّاد

﴿ ١٣٠٦ ـ ١٣٨٣هـ = ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م ﴾

ـ تَرْجَمَتُهُ وَسِيرَتُهُ:

قَالَ خير الدِّين الزِّرِكْلِيُّ الدِّمشقيُّ ((ت سنة ١٣٩٦هـ)) فى ((الأعلام)):

﴿ عبَّاس بن محمود بن إبراهيم بن مُصطفى العقَّاد.

إمامٌ فى الأدب؛ مصرىٌّ؛ من المُكثرين كتابةً وتصنيفاً مع الإبداع.

أصله من دمياط؛ انتقل أسلافه إلى المحلة الكُبرى؛ وكان أحدهم يعمل فى (عقادة) الحرير؛ فَعُرِفَ بالعقَّاد.

وأقام أبوه صَرَّافَا فى إسنا؛ فتزوَّج بكُرديَّةٍ من أُسوان.

وَوُلِدَ عبَّاس فى أُسوان؛ وتعلَّم فى مدرستها الابتدائيَّة؛ وَشُغِفَ بالمُطالعة.

وسعى للرِّزق؛ فكان مُوظَّفاً بالسِّكة الحديديَّة وبوزارة الأوقاف بالقاهرة؛ ثُمَّ مُعلِّماً فى بعض المدارس الأهليَّة.

وانقطع إلى الكتابة فى الصُّحف والتأليف؛ وأقبل النَّاسُ على ما ينشر.

تعلَّم الإنكليزيَّة فى صباه وأجادها؛ ثم أَلَمَّ بالألمانيَّة والفرنسيَّة؛ وظلَّ اسمه لامعاً مُدَّةَ نصف قرنٍ؛ أخرج فى خلالها من تصنيفه ٨٣ كتاباً فى أنواعٍ مُختلفةٍ من الأدب الرَّفيع؛ منها كتاب عن: ((الله)) ؛ و((عبقريَّة محُمَّد)) ؛

و ((عبقريَّة خالد)) ؛ و((عبقريَّة عُمر)) ؛ و((عبقريَّة عليّ)) ؛ و((عبقريَّة الصِّدِّيق)) .

و ((رجعة أبى العلاء)) ؛ و ((الفُصُول)) ؛ و ((مُراجعات فى الأدب والفُنُون)) ؛ و ((ساعات بين الكُتُب)) ؛ و ((ابن الرُّومى)) ؛ و ((أبو نُواس)) و ((سارة)) ؛ و((سعد زغلول)) ؛ و ((المرأة فى القُرآن)) ؛ و ((هتلر)) ؛ و ((إبليس)) ؛ و ((مجمع الأحياء)) ؛ و ((الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق)) ؛ و ((عرائس وشياطين)) ؛ و ((ما يُقال عن الإسلام)) ؛ و ((التفكير فريضة إسلاميَّة)) ؛ و ((أعاصير مغرب)) ؛ و ((المُطالعات)) ؛ و ((الشُّذُور)) ؛ و ((ديوان العقَّاد)) .

وَكُلُّهَا مطبوعةٌ مُتداولة .

وصدر له بعد وفاته كتابٌ سمَّاه ناشره : ((أنا... بقلم عبَّاس محمود)) .

وكان من أعضاء المجامع العربيَّة الثلاثة : ((دمشق ؛ والقاهرة ؛ وبغداد)) .

شعرهُ جيِّد .

ولَّما برزت حركة التحلُّل من قواعد اللُّغة وأساليب الفُصحى عَمِلَ على سحقها.

وكان أجش الصوت ؛ فى قامته طُول ؛ نُعِتَ من أجله بالعملاق .

تُوفِّى بالقاهرة ؛ وَدُفِنَ بأسوان . ﴾ . (١) .

وقد ذكرهُ السيِّد مُرسى أبو ذكرى فى كتابهِ ((المقال وتطوره فى الأدب

---

(١) ـ دار العلم للملايين ؛ الطبعة : الخامسة عشر : أيار = مايو ٢٠٠٢ م.

المعاصر)) ؛ فقال :

﴿ عبَّاس محمود العقَّاد ((١٨٨٩ـ ١٩٦٤م))

مُفكِّرٌ ؛ وأديبٌ ؛ وشاعرٌ ؛ وناقد ذو طبيعة جديَّةٍ ؛ حَلَّقَ فى آفاقٍ ساميةٍ نبيلةٍ ؛ لا يتدنَّى إلى مُشكلات الحياة اليوميَّة العاديَّة .

تضُمُّ مقالاته كُلَّ رصيدٍ من الموضوعات التى تُوحى بكتاباته الجادَّة ؛ خالط الأوروبيين ـ عن طريق القراءة ـ فى أدبهم وفنونهم وعلومهم وفلسفاتهم ؛ وشاعت هذه المُخالطة فى جميع كتاباته ؛ حتى برز دوره الأصيل فى نهضتنا الفكريَّة ؛ وهو دورٌ يقوم على نقل الفكر الغربىِّ إلى أوعية لُغتنا ؛ مع فحصه وطرح مالا يُلائمنا منه .

أغزر كُتَّاب مصر إنتاجاً ؛ فقد كتب حوالى أحد عشر ألف مقالٍ خلال نصف قرنٍ ؛ بدأ الكتابة ١٩٠٧م ؛ وظلَّ من ١٩٢٢ حتَّى ١٩٣٥ يكتُب مقالاً صحفيَّاً يوميَّاً عدا يومٍ واحدٍ فى الأسبوع ؛ والأشهر التسعة التى قضاها فى السجن بحُجَّة العيب فى الذَّات الملكيَّة ؛ ومن ١٩٣٧م إلى ١٩٥٢ م كان يكتُب ما بين ثلاثة وأربعة مقالات صحفيَّة فى الأسبوع ؛ هذا إلى جانب مئات المقالات غير الصحفيَّة التى نُشرت فى الصُّحُف والمجلاَّت ؛ ويتميَّز العقَّاد بكثرة الصُّحُف والمجلاَّت التى عَمِلَ بها ؛ وهى على سبيل المثال : ((الدستور)) ؛ و ((المؤيد)) ؛ و ((البيان)) ؛ و ((الأفكار)) ؛ و ((البلاغ)) ؛ و ((الأساس)) ؛ و ((الأهرام)) .

ويقول شوقى ضيف عن العقَّاد :

« وقد ظلَّ مُنْذُ باكورة حياته الأدبيَّة يعكف على الفلسفات والأدب والفنون الغربيَّة ؛ وتمثَّلها جميعاً تمثُّلاً رائعاً ؛ وهو تمثُّلٌ أخضعها فيه لسُلطان عقله ؛ فإذا هو يحُلِّلها وينقدها ؛ مُكوِّناً لنفسه فيها صُوراً ظلَّ ينشرها تارةً فى مقالات ؛ وتارةً فى مُؤلَّفات . » . (١) .

ـ أُسلُوب العقَّاد :

تناول العقَّاد أكثر من لون من ألوان المقالة : سياسيَّة ؛ وأدبيَّة ؛ واجتماعيَّة ؛ ووصفيَّة.

اعتمد أسلوبه فيها على التعبير المحُكم الذى يُؤثِر الألفاظ المُوحية والجُمل المحُكمة التى تقوم على : الدقة فى التصوير ؛ والقصد فى التعبير ؛ والتركيز فى كتاباته.

ورغم ذلك كُلَّهُ فإن أسلوبه يتميَّز بما يلى :

١ـ عدم الإفراط فى المُقدِّمات ؛ أو اللجوء إلى التكرار ؛ أو اللف ؛ أو التوكيد بالكلمة أو الجُملة .

٢ـ العناية بوفرة المعانى وغزارة المادَّة .

وحسب الكلمة والعبارة أن : تؤدى المعنى ؛ وتنقل الخاطرة ؛ وتُفصح عن الشُّعور : لتزيد المعنى ؛ وتُضيف إلى الفكرة جديداً .

٣ـ طُول بعض الجُمل أكثر من المألوف ؛ ممَّا يجعل شيئاً من الغموض أو الجفاف أو الالتواء فى الأسلوب ؛ مما يتطلَّب من القارئ تنبُّهاً عظيماً .

---

(١) ـ « مع العقَّاد » ؛ [ص : ٨٢] ؛ العدد : ٢٥٩ من سلسلة اقرأ ؛ دار المعارف .

٤ـ الإبانة والإفصاح ؛ مع الجمال الطبيعىِّ الذى قد يصل أحياناً إلى حَدِّ الشاعريَّة.

٥ـ استخدام التديلات الضابطة والاحتراسات المُتحفظِّة ؛ حتى يضمن إحكام التعبير ؛ ويصون دقة المعنى .

٦ـ يتسم بالجدل المنطقىِّ ؛ وَالحِجَاجِ العقلىِّ ؛ والتحليل الدقيق ؛ واختيار الألفاظ المُتشامخة ذات الجَرْس والطنين .

٧ـ البُعْدُ عن زخرفة اللفظ ؛ سوى السَّجْع الذى تحتاجه المواقف ؛ كالسُّخرية ؛ والتحدى ؛ والدعاية ؛ حتى يُفزع رنينه الأسماع.

وفى النَّصِّ التالى سمات أسلوب العقَّاد ؛ وهو جزءٌ من مقال العقَّاد فى « الألم واللذة » ؛ وفيه يقول :

« أما أن الألم موجودٌ فى هذه الدنيا ؛ فمما لا يختلف فيه اثنان ؛ وأما أنه كثيرٌ فوق ما تقبله النفوس ؛ فمما لا يختلف فيه إلا القليل ؛ وأما أنه نافعٌ أو غير نافعٍ ؛ ومُقدِّمٌ للحياة أو مُثبِّطٌ لها ؛ فذلك ما يختلف فيه الكثيرون .

ورأيتُ فى هذا الخلاف أنَّ الألم ضرورةٌ من ضرورات الحياة ؛ وحسنةٌ من حسناتها فى بعض الأحيان ؛ وحالةٌ لا تُتخيَّل الإنسانيَّة بدُونها على وجهٍ من الوجوه.

أما تفصيل هذا الرأى ؛ فهو أن الشُّعور يستلزم الشُّعور بغير النفس ؛ فهذه الـ « أنا » التى تقولها ؛ وتحمل فيها خصائص حياتك ؛ ومميِّزات وجُودك ؛ وتعرف بها نفسك ؛ مُستقلاً عمَّا حولك ؛ مُنفرداً بإحساسك : هى نصيبك من

الحياة الذى لا نصيب لك غيره ؛ وهى تلك ((الذات)) التى لا تشعر بها إلا إذا شعرت بشىءٍ مُخالفٍ فى هذا العالم الذى يُحيط بها ؛ فأنت لا تكون شيئاً له حياةٌ ولذَّاتٌ وآلامٌ ومحابٌّ ومكارهٌ ؛ إلا إذا كانت فى هذا العالم أشياء أُخرى ؛ ولا تكون هذه الأشياء الأُخرى معك إلا إذا كان منها ما يُلائمك وما لا يُلائمك ؛ أو ما يسُرُّك وما يُؤلمك.)) . (١).

يكشف لك هذا المقال وغيره عن قُدرة العقَّاد فى هضم الفلسفات والآداب الغربيَّة ؛ وإخضاع ما يقرؤه لعقله وفكره العربىِّ ؛ واستنباط صورٍ ضمَّنها مقالاته وكتاباته فى الصُّحُف التى عَمِلَ بها. ﴾.(٢).

.....

ب ـ العَقَّاد ... وَالمَنْهَجُ التَّارِيخِىُّ ... مِن خِلالِ كِتَابِهِ

((شُعَرَاءُ مِصْر وَبِيئَاتِهِم فِى الجِيلِ المَاضِى))

يَقُول العقَّاد فى مُقدِّمة الكتاب :

﴿ أثرُ البيئة فى شُعرائنا الذينَ ظهروا مُنذُ عهدِ إسماعيل وقبل الجيل الحاضر : هو موضُوع هذا الكتاب ... ؛ ومعرفةُ البيئة ضروريَّةٌ فى نقدِ كُلِّ شعرٍ فى كُلِّ أُمَّةٍ وفى كُلِّ جيل ؛ ولكنها ألزم فى مصر على التَّخصيص ؛ وألزم من ذلكَ فى جيلها الماضى على الأخص ؛ لأنَّ مصر قد اشتملت مُنذُ

---

(١) ـ ((مُطالعات فى الكتب والحياة)) ؛ [صـ : ٢٥٤ ؛ وما بعدها] .

(٢) ـ ((المقال وتطوره فى الأدب المعاصر)) ؛ دار المعارف ؛ الطبعة : ١٩٨١ـ١٩٨٢ م [ص : ٢٠٠ ـ ٢٠٢] .

بداية الجيل إلى نهايتهِ على بيئاتٍ مُختلفةٍ لا تجمعُ بينها صِلَةٌ من صلات الثَّقافة غير اللغة العربيَّة التى كانت لُغة الكاتبين والنَّاظمين جميعاً ؛ وهىَ حتَّى فى هذهِ الجامعة لم تكُن على نسقٍ واحدٍ ولا رُتْبَةٍ واحدةٍ ؛ لاختلافِ درجةِ التَّعليم فى أنحائها وطوائفها ؛ بل لاختلافِ نوعِ التعليم فى من نشئوا على الدُّرُوسِ الدِّينيَّة ؛ ومن نشئوا على الدُّرُوسِ العصريَّة ؛ واختلافهُ بين هؤلاء جميعاً وبين من أخذُوا بنصيبٍ من هذا ومن ذاك . ﴾.

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِك :

﴿ وقد اجتمعَ البارودىُّ وعلى الليثىُّ فى عصرٍ واحدٍ ؛ والتقت أواحرُ أيَّامِ البارُودىُّ بأوائلِ المُعاصرين ؛ ولكن الفُرُوق بينهم جميعاً فى مذاهبِ القولِ لا يُحيطُ بها أدبُ أُمَّةٍ أُخرى من أُممِ العالمِ فى أُلُوفِ السِّنين ؛ وكُلُّ إدراكٍ لخُطُواتِ التجديد فى الأدبِ المُعاصر ؛ هُوَ إدراكٌ ناقصٌ مبتُورٌ مالم يقترن بهِ إدراك هذه الحالة التى لا نظير لها بينَ آدابِ اللُّغاتِ الأُخرى ؛ وهىَ الحالةُ التى استلزمها تعدُّد الهيئات الأدبيَّة عندنا فى الجيل الماضى . ﴾ .

ومن تأمَّلَ هذا الذى ذُكِر ؛ عَلِمَ أنَّ دليله ورائدهُ فى كُلِّ هذا هُوَ المنهجُ التَّاريخىُّ .

ثُمَّ :

لماذا عجزت المرأة عن إجادة الشِّعر ؛ والنُّبُوغ فى فَنِّ القريض ؟!!

عِلَّةُ ذلكَ عندَ العقَّاد أنَّ طبيعة المرأة من حُيثُ هى امرأة تعجزُ عن التعبير الصَّريح عن عواطفها وانفعالاتها وما يَمُورُ بذاتها وَيَخْتَلِجُ بكيانها ؛ فطبيعتها

مُنْذُ أقدم عُهُودِ التَّاريخ تميلُ إلى إيثار الكتمان ؛ ومُغالبة العاطفة وإخفائها ؛ نعم قد تُعَبِّر عن مشاعر الحُزْنِ والألم ؛ وها هى الخنساء قد أجادت فى هذا المضمار ؛ إلاَّ أنَّ هذا لا يدفعُ ويدحضُ ما ذهب إليهِ العقَّاد ؛ إذ الحُزنُ يتوافقُ وطبيعة المرأة ؛ أى طبيعة الاستسلام والانقياد والضَّعف ؛ فالمرأةُ إذا ما وقفت بإزاء الرَّجُل فى أىِّ ميدانٍ ؛ فهىَ الحييَّةُ الضَّعيفةُ المُستكينة ؛ والتى إذا ما رغبت فإنَّ عجزها وخوفها وخجلها الفطرىَّ يحُولُ بينها وبينَ رغبتها .

وأمَّا الرَّجُل ... ؛ فهو القوىُّ ؛ الجرىء ؛ المِقْدَام ... ؛ والذى إذا ما رغبَ ؛ فإنَّهُ لا يعرف التَّرَدُّد ولا الخجلَ ولا الخوف .

وهكذا يتجلَّى بوضُوحٍ : كيف كان العقَّاد يرجع إلى التَّاريخ ؛ لِيُعَلِّل بهِ الظَّواهر والقضايا ... ؛ وكيفَ كانَ لهُ بمثابةِ المادَّةِ الخِصْبَةِ التى تُعينُهُ على معرفةِ الأسبابِ والعِلَل .